استئناسُ الفَرَاغ

كريم عبد السلام

استئناسُ الفَرَاغ

1993

مثلُ قدمين لم تعودا

موجودتين

وباقٍ عدمُ تصديق انفصالهما،

يطفو ..

الحيزُ الذى تمتلكُه

I

استيقظتْ التجاعيدُ من نومى

بلا مظلة .. ما العمل بالمطر ؟

فى حماس كبير

طاردَ الفقاقيع الملونة

بضربات من كلتا يديه

وأصبح احتكاكُ المعطف بالهواء

متناغماً مع ضجيج الأطفال.

مرةً وحيدة

شارك فى اصطياد القطط الوليدة بعد

إبعاد أمها

دائما..

التلصص على بخار الأنفاس

أثناء حديث ودى

دائما..

الحوائط ليست شفافة

والألفةُ كوبُ ماء

أفلت من يد الصغير .

ألم يكن من الأفضل

أن يحتفظ بالأصحاب

مجمّدين فى رأسه

قد تمطر فى أية لحظة

بالقرب من تشابك الأيدى

المقاعدُ الخشبية

لا تمتص حرارةَ الجسم

كالمقاعد المصنوعة من الحجر

إذا كنتَ ممدداً

فى المكان الدى غادرته البناتُ حالا

فقد خدعك الهواء كالعادة :

"سأطيّر ثيابهن "

كم موجةً يصنع الحجر

إذا قُدف بأعصابٍ باردة

على الحشائش أوراقٌ

لاتكسر استقامتَها

مقدمات

(1)

لا مطرٌ ساقط

رغم ذلك أحتمى بالأفاريز

ليس من العقل

أن أسلم رأسى بيدى

(2)

فى الإضاءة الباهتة

تنجو بعض الأشياء من السحق

كأن تمنح دميةٌ

قبلةً لخدّكَ

(3)

لبؤةٌ محملةٌ بالجروح

فتاةُ الشرقة المقابلة

تقتل الليل بزئيرها،

بدراما النجاة من منزلٍ

يجاوب الشاحنات المارة

كم تشبه الجنيةَ التى تمتصكَ ولايراها غيركَ

(4)

أصابعى تفصل رقابَ الطيور

أحببتُ بعضها بالفعل

فى المقابل

تعاقبنى العربات

بأن تخطىء التصويب

على رأسى

II

غنغرينا

اِلحجْر

قدمى مربوطةٌ بالمنضدة

حتى صباح الغد

من العدو ؟

الأم التى تترك النومَ يوقظكَ

بارتطام رأسكَ بالصدر

من الخائن ؟

الأب الذى لا يرى أنك معصوم

من العقاب

ادّخرتُ ظلالكِ

أصبعان على جفنين
على شحمة أذن خالية
إلا من حفرة تشق النعومة
حيث يتركز أسفُنا كله،
وحيث الحبيبات الصلدة
التي مرت تحت الأسنان
تذكّرنا بقدرتها على الإيلام.

كم هو مسالمٌ
زفيركِ
لايكاد يرعش قطرة عرق

أعلى الشفة

وكم يحتاج

لمن يستقبل دفئه

قبل أن يبتلعه الهواء

شرطى العيون

يلاحقها أثناء نومها أيضا

كالرغبة فى إراحة أرجلنا

تحت عجلات قطار ،

تهرب أمامه لآخر السرداب

إلى جدران البيت

تلزمه كسلحفاة تحت الضجيج

لاتلبث أن تسقط

أمام أطفال مرتعبين

يعجنون التراب لبناء المصائد.

الأعضاء المرتبة على الحائط

تشغل موضعها فى الفراش

وتتركه دافئاً،

فى الصباح الباكر

فتشتُ عن لمسات العطر

عن أصابع ممتلئة بالماء

يعبدها عطشانون عجزة،

عن قدمٍ

وطئت الحديقة بخضوع ضاحك

ثم تركتْ الأغصان

متشبثةً برائحة آدميين يرحلون

ضفيرة شقراء

سالت على فخذى،

كنتُ أحدق فى الوجه

التجاعيد المبكرة

لم تتركنى بسلام

ادخرتُ ظلالكِ:

موسم طلقات الرحمة

وملامسات تبدو عفوية

تعود بالدائرة لمركزها

الخطوات التى لم تُمش

والأعداد الهائلة من الجراثيم

تفتحين لها رئتيك

العودة

جسدُها

يسلم مفاتيح بواباته لأصابعى

خداها البارزان قليلا

بشحوبهما

الدى يجعلنا عطوفين ومؤمنين أكثر

شعرُها نفسه

المغسول فى الصباح بماء دافىء

الممشط – بعناية – إلى الخلف –

ورائحته كابتسامتها

عندما أتخيلها لى وحدى

هل أرختْ شفتيها

وهل امتصصتُ ارتعاب العجوز

من ملاك الوحدة وأصواتِ الطيور

التى تذكّر بحديقة المستشفى

تجىء إلى غرفتى

لتموت على السرير الحديدى

كما فعلت الفتاةُ

ذات العينين الخضراوين

التى تدخن بشراهة

وتتجاهلنى

أصير مسيحاً خاصاً بها

لا أخبرها بموتها خوفا عليها

وأخفى عنها السجائر والناس

لأننى سأتعلم العديد

من ألعاب السحرة

كلما سأل الفضوليين عن مكانها

قلت :

ليست تحت جلدى

ثم أشغلهم بالحديث

عن ورم أبى

الدنئ الذى طعنه فى ظهره

فينعتوننى بالقاتل

ولا أهتم

فى أحد الصباحات

تستهدى بضحكاتها

مخلوقاتٌ كثيرةٌ

فأضربها

بيأس شلال

لتختفى داخل بكائها .

III

كمن لا يخفى وراء ظهره مطواة

عن القمر

.....

وعندما أكل الظلام فوانيسه

كانت قطعان من الخلايا الميتة

والخلايا التى ستموت

رابضة فى السفح بين الجبلين

وكان الرعاة

ينظرون للسماء ويغنون

يميلون برؤوسهم الى الوراء متشممين

الضحكات العصبية للريح

(يا ممطرة .. يابتول

وحدك تقدرين

أن ترققى قلب أمه

هدا الراعى الصغير

لأنه سكب الحليب)

عندئذ بكت الذئاب

-لأول مرة قبل هجومها –

من أجل الفريسة .

عن الخوف

(1)

أتحرك

كمن لا يخفى وراء ظهره مطواة

ويله

من يتجرأ و يصفعنى

(2)

أين تهرب أنتَ

من طفلة عرجاء

تتحداك كل يوم

فى السابعة صباحا

(3)

المؤكد

أنها لم توجد أبداً

القشة

التى يتعلق بها الغريق

عن الحلبة الرومانية

بالطعنات

تملأ أشجار الكمان

القروح التى ارتدتْ ملابس شفاء

واستعدتْ لتموت .

عرفتَ إذن

أن داخلى طيوراً مسمومة

ونباتات منزوعة من الجذور

أنتَ

أيها الكمان

الوجوه الممصوصة التى تراها

مبتسمة تحت العجلات

أو محدقةً فى الأسفل

رغم تحليقها

تخترع خط دفاعها الأخير

ليصرخ كلٌّ منها

مبهوراً باكتشافه :

إننى

على قيد الحياة

لازلتُ.

عن المرحلة الزرقاء

على حطبٍ مشبّعٍ بالماء

تجسدتْ انحناءةُ صياد

وتنورتْ أزهار الرجفة

أطفىء النور

ليتسع العالم

لتمنح الأذرع المقطوعة

فرصة

كى تلوّح لبعيد

أو تسلم على بعضها

قبل تصلبها ،

والأرجل الحالمة بالمشى

فى شوارع بيضاء

خالية من الناس

أطفىء النور لأجل تخلّقها

إلى أن تعبر عجلات الهكسوس

ودروع الإسكندر .

سوف تتكلم الأشياء

التى طالما صمتتْ

IV

لا مفر للمرء من زهوره الحقيقية

(1)

على المنضدة

ابنة الشجرة وأم الرماد

اتكأ بمرفقيه

فالأصدقاء

أحضروا العزلة معهم

(2)

كيف صعد مائى إلى غرقها ؟

فى التقاء عيوننا

انكسرتْ نظرتى أولا

(3)

يلحّ على

أن أرسم وجهها على هيئة جنة

الأقلام

الوحيدة التى تفضح غباء الأوراق

والجنة – أيضا–

تُنسى

(4)

مستعد لأخلص الدين أحبهم جداً

ثم الذين أحبهم

البشاعة :

أنهم يعدونه قتلاً

(5)

فى قليل من الماء

ثلاثة أعواد كانت غصناً واحداً

قطعةُ فحم

تشبه شيئاً حدث فى المستقبل

وألوان من الشمع

تعود لعام 74

إذ لا مفر للمرء من زهوره الحقيقية

(6)

ما من يد

بيضاء وطرية

لأضغط عليها بقوة

ثم أعتذر كبرئ

(7)

كسرت لطائر وقع بيدى

إحدى ساقيه

ثم أطلقته

أنسحب –كدودة–

إلى الخلف

(8)

نار كسرى

ماذا ؟

نار كسرى المطفأة

(9)

نائم فى سرير أبى

أشبهه تماماً

لكنه كان يفضل النوم

ناحية الخارج

والتكأة الزرقاء

لم تعد أثيرة

(10)

ما المرآة

دون وجهى

وما العالم

إذا جذبت أمٌّ يدَ صغيرها

بعيداً عن بائع الحلوى

(11)

الأطفال

يحضنون حقائبهم القماشية

هو .... لا

وابتسامته – أيضا –

خبيثة

(12)

سأضع الضوء داخل قفص

ساقى خشبية

وهى ..

حوتى الأبيض

(13)

كالأمراض المهزومة

خبتْ رغبةُ الأرض

فى الاستيلاء علينا

أو التشبث بنا

(14)

كلما حدقتُ

فقدتْ الفاكهة رائحتَها

V

كثيراً ما يخاطبُ شبحَها

غائبة

ضمى أصابعك علىَّ جيداً

أنا من كان اسمه "نجمةُ المفلس"

أدون ملاحظات حول علاقة الشاطئ بقطعة تائهة من الخشب،

كيف تتخبط فى صخرة ناتئة ، ثم ترتد ثانية إلى الماء

لتعود من جديد إلى الصخرة

بالأمس،

اشتريت واحدة من بائع الهارمونيكا،

الشيخ الذى تعاطفنا معه

لحن واحد لايبدو آليا يستخدمه طعما لاصطياد المشترين

جميل أن يعيش لحن كهذا بين أصابع تاجر.

رتبتُ أولوياتنا

ألا نسمح للجثث بابتلاعنا

ومسحت الغبار عن ورقتنا المشتركة حول محبة الحياة

وبالأمس أيضا

امتلكتُ عبارةً ليوم كامل:

"ماذا تعمل خشبةٌ فى البحر حتى تصبح صخرة"؟

أنا القديم

نعمل ضجيجاً بينما يحيطنا الصمت،

يرقبنا،

فى انتظار الفرصة

ليرتفع كاسحا ما يقابله

أين الأكواب التى تسقط

فنتحرر من شرودنا؟

والأشباح التى تعبر إلى جوارك

من أجل التفاتة فزعة تضحكها

أين ذهبت؟

أنا القديم،

تحمس على ما أذكر لإصلاح ساعة الحائط

التى تبتلع الزمن من قلب حبيبته

مبديا تعاطفه نحو ملابسه القديمة التى تخللتها الثقوب

ثم أخذ يبحث لحبيبته التى كلها عين

عن أطراف وفم وأنف وهيئة مناسبة

حتى تحقق حلمها بالانضمام إلى السيرك.

الندوب

بعد طول سَيْر

وقد ارتميتَ على مقعد فى حديقة

أو عندما تلجأ للنوم

لأن آخر من تظنه جارحاً

يمتلك عديداً من المخالب والأنياب

تتقدم الندوب بحثا عن فريستها.

إذن،

أنت لست هنا

أنت فى بلاد رحيمة

تسير فى زحام آمن

ولم يتبق فى المكان الذى تشغله

الذى يسعى إليه المطاردون

سوى روائح تخدع كلاب الصيد

مثلما يدل الإهاب الشفاف

على ثعبان يبدل جلده ويمضى

رغم ذلك ،

تتعرف الندوب إلى المكان الذى تهفو إليه روحك

وتسبقك إليه

شارعُ البحر

بدل انسحابى مردداً: لستِ لى

سأضلّلُ المارة

ثم أقبض على شعرك

شعرك البنّى الذى أحب ملمسه،

ولا يضايقنى أن يغطى وجهى ساعة العناق

يدى تضغط وتجذب

فيميل وجهك ناحيتى

مجللا بالحمرة والألم

فأزيد من إحكام قبضتى وأسألك:

أين ذهبت الحمى التى كانت تنام بين أيدينا؟

أين شارع البحر الذى شهد اللمسة الأولى

والقبلة الأولى؟

أية لعنة حولتك إلى تمثال من الرمل

ينسرب من بين أصابعى؟

VI

استئناس الفراغ

اللغة

سليمة من البارانويا

مستقيمة ودائرية وانسيابية ومقتضبة

أمٌّ،

حيث المجاز ينام جوار المباشرة عضوين فى جسد

وحيث التفاعيل تدخل من كوة فى السقف

لأن الإيقاع فى نسيج الهواء

لا يتقدمها "يجب أن"

ولا مانع من الوصول إليها عبر الدهاليز

من تفقد الكرار والسطح والغرف المسحورة المغلقة.

اللغة،

أرض ذات تعاريج وأحراش

ودروب سريعة ممهدة

غابات من الأحلام والطعوم والروائع

لغة ليست طريقا عمومية.

الكتابة

تطبق أسنانك على الضوء حتى يصرخ

وتربى الشغف بين جدران حجرتك الفقيرة

الجدران المطلية بالأحلام الكبيرة

أعرفهم ، آبائى

واحدا واحدا ، أقتص منهم

كقاتل محترف،

أزرع الديناميت فى باقات الزهور مع بطاقة رقيقة

السم فى الشراب مع لهجة آمرة : تجرع يا أبى ونم فى سلام

أحيانا أستخدم مطواتى الأثيرة

فى مطاردة بين الأزقة والشوارع المظلمة للتاريخ.

لابد أن أمتلك ظلّى

حتى لو تكبدت حيوات عديدة

بدون أقدام كبيرة تدوس أعشاب حديقتى

ساعتها، أضم قبضتى لصدرى

وأزجر المخلوقات فتطيع

تقبض بين أصابعك على حياة ، وسرعان ما تقصفها

لا شيئ يعدل هذا الصوت الخافت المتحشرج

والعينين الواهنتين المتسائلتين: لمَ؟

كفافيس

ماذا لو قلت لأمى ، بينما تتناول عشاءنا:

حدقى فى المقعد الخالى، يجلس عليه نهر شاذ

هل تُعير كونه شاعرى الأثير أى التفات؟

أذكرها بتغاضيها القديم عن أوسكار وايلد

ثم يتضح أنه لا مفر من انقلاب المنضدة

لا أعتقد أنه فى غمرة خروجه المرتبك

سمع تشبيهها إياه بجارتنا العجفاء

أمى يا سليطةَ اللسان

هذا الشبح الشمعى ذو العوينات

ممتلئٌ بالحياة والأزمنة حتى أظفاره

أحيانا أراه عدمياً

متباهياً

شوفينياً

مستغنياً بذاته عن العالمين

يحيا لتبرير متعته،

لكنى أستعد لأجاهر أمامه بالنار التى أحملها فى صدرى

رغم يقينى أن ظلامه اختزال لأنوار كثيرة.

فان جوخ

يقول المؤلف إنه سلم يده للهب شمعة

حتى صعدت رائحة اللحم المحترق للسماء السابعة،

لمجرد التحدث مع ابنة عمه

إذا صدقنا صندوق بشاعتكَ يا ناسج السيرة

لم لم تظهر ابنة العم بمظهر داعية دميمة

تقتل زبائنها بعد أن تخدرهم؟

وعن النهاية..

ماذا لو كانت : سيأتى اليوم الذى تلعقون فيه حذائى

أيها الأدعياء والمزيفون

أيها المتنفّجون عديمو الموهبة

قبل أن تختفوا مثل نقاط المياه على الأرض العطشى،

بدل أن يطلق الرصاص على صدغه؟

قليل من التعديل يصلح الأرواح الشقية يا مؤلف

أيها العالَمُ..

أرح الذبيحة.

المعنى

إلى الآن،

الصيادون داخل رأسى،

الذى يبدو كرأس عادى،

يغطون الحفر بأوراق الأشجار

ويصنعون ظلالا أتجاهل اقتفاءها لحركتى.

ها قد عبرت البحار السبعة

واجتزت الصحارى السبع

أينها الفريسة

أينها الياقوتة

أينه المعنى

بين الصحارى السبع والفخاخ التى ينصبها الصيادون

داخل رأسى

أين طريقى فى الغابة التى تظهر فى المرآة

بين العيون الصفراء للوحوش

والطبول البعيدة

والليل الخالص.

إلى الآن،

تظل يدى تنام بين أسنان زجاج النافذة

منذ أول اختبار للحقيقة.

VII

خماسيةُ الأب

هو .. ذا

رفضتْ تسقيه الماء بالسكر

وعليَّ أن أحبها

هو ذا الإبن

أعلى من الرغبة فى السمو .

مِلْ برأسكَ على صدرى

لأرفع المخدات

لن أتحمل صفاء المشهد

إذا تم بربط اليدين

بالقوائم الخلفية

لحصانين متدابرين

أو بالإلقاء

فى بيت الثعابين العاصرة.

العين قبل الانطفاء تتسع

إذ يُكمم الفم

حتى لا يتسرب الألم

وتتجلى ملامحُ مطاردين

يفتشون عن أمن لحظة .

مجرّدُ وعلين جبليين

لو أنه لم يكن محتلاً

يكزّ على أسنانه ويرتجف،

بمثابرة سمكةٍ داخل شبكة.

ولو أنه لم يرج الله

أن يريحه بطلقةٍ فى الفم

ليقدر أن يشم الهواء

ويسعل ويبول،

لكنتُ حراً

فى عدم تذكّر

أنه ضرب المدرّسة من أجلى

وأجل ختانى أسبوعاً كاملاً

عندما بكيت

لو أننا – أنا هو –

مجرد وعلين جبليين

أكنت أشعر بمثل هذا الحنين

هو أيضا

كان سيجهل أبوته لى

بل إنه قطعاً سينسى

لذة صناعتى

وقد نوجّه لبعضنا ضربات عنيفة

من أجل الحصول على نفسى الأنثى.

مرآةٌ مقعرة

ركلةٌ واحدةٌ من قدمٍ وهنتْ

كافيةٌ للخروج من البيت

والحديث عن جرح غائر .

أثناء تحوله لحصان

كانت ركلاتى تعرف طريقها

لجنبيه

بمهارة حوذى

أمسكتُ بتحدّبٍ فى الروح

يتغذى على الدعوات ونظرات الامتنان

مقتفياً آثار خفاشٍ

تعلقتُ ..

الرأس إلى أسفل

هكذا

تسقط الشوائب التى أصبحت مؤلمة.

أحمل الأبوّة

صاعداً الطوابق الخمسة

العيون مرة أخرى

مغلوبةٌ وساكنة

الستارة الشفافة التى تغطى الحدقة

إننى مرتبكٌ جداً

كأن بنتاً تنظر لى بنهم

كنت أقول لنفسى

عندما أشيخ

ويُقعدنى المرض

سيتحول أحد أبنائى لغابةٍ

ويكون الكلام

حريقا ينبش الذاكرة

سأدير وجهى عنه

بعد أن أسلّط عليه عينىَّ

لتوحيا له أنه أصبح مشوهاً

قد ينهار على قدمىَّ

يغسلهما بقبلاته

أو ينصرف مغمغماً بكلمات ضدى

سأدعو زوجتى

التى هى أمه بالطبع

للجلوس جانبى

وأضع يدى خلف ظهرها .

أنظرُ إليكَ

على الكومودينو

زجاجةُ المحلول التى ستسقط

حين يحاول الإمساك

بشىء غير الهواء ،

وصورةٌ له وهو يرفع أخى لأعلى

يدٌ ترتكز على كتفى

والأخرى تجذب – بإصرار –

ملاءة السرير

تشاغلوا كأنكم لم تروا شيئا

وسأقول إننى تقيأت

أو أى شىء آخر

وليبق الصمت سيداً

وممتلئاً برعب الأطفال

واختلاجات يدين

معقودتين على الصدر

والتشنجات التى خفف من وحدتها العناق

تشاغلوا

كأنكم لم تروا .

VIII

قنطرةٌ خشبية

لمواجهة الصراخ أثناء النوم :

الأشباح بطبيعتها ليست مؤذية

أنت الذى تثيرها بانهياراتك،

دائما تتأخر النوافذ فى الحضور

أيها الماء كن رحيماً كهواء

لمواجهة بضع حبات مزروعة فى إصيص :

أخيرا أتتْ صاعقة وقتلتْ كل العصافير.